وتوقف تقدمهم، بسهامها ونبالها، ومجانيقها، من على الأسوار، ومن التحصينات، وهي تقاتل بعنف وضراوة لا مثيل لهما، بينما كان فرسانها يخرجون «إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون»، إلا أن ذلك لم يكن ليثني المسلمين عن تقدمهم ونقبهم للأسوار وتدميرها وتدمير التحصينات العدوة بمجانيقهم. وقد قتل، في هذه المعركة، من الفريقين، الكثير، وممن قتل من المسلمين «الأمير عز الدين عيسى بن مالك» وكان والده «صاحب قلعة جعبر»[60].

واستمر القتال عنيفاً، بعد ذلك، خصوصاً وأن المسلمين، وقد هالهم مصرع الأمير عز الدين، لم يعودوا يرضون بغير الانتصار، وهزيمة الأعداء، بديلاً. ويصف «غروسيه» المعركة التي دارت عند أسوار المدينة بأنها كانت، من الضراوة، «ما لم يسمع بمثله»، كما كانت «عطشاً حقيقياً للشهادة»، وهو يستطرد: لقد كانت: «المعارك الأكثر ضراوة، كما لم يشهده إنسان، فكل رجل من الجيشين كان ينظر إلى الصراع كفعل ديني والتزام حتمي»[61]. كما يصف «غروسيه» كذلك، قتال الصليبيين الذين «كانوا يخرجون كل يوم، للقتال، إما كمجموعة، أو فرادى»، بأنهم «قاوموا آلات الحرب العائدة لصلاح الدين بعزم لم يكن منتظراً من قبل هذه العناصر المدنية»[62]. وهو، إذ يذكر أن «جميع هجمات المسلمين فشلت، ومنوا بالخسائر»، يحاول أن يبرز خسارة الصليبيين وهزيمتهم في هذه المعركة بأنه «كان لدى صلاح الدين تفوق في المدفعية إلى درجة أن سقوط المدينة كان حتمياً، وأن النقّابين العاملين تحت غطاء من حجارة المجانيق نجحوا في فتح ثغرة في جدار السور»[63].

وقرر الفرسان والنبلاء الصليبيون القيام بهجوم ردي انتحاري على المسلمين، خارج الأسوار، إلا أن بطريركهم «هرقل» ردعهم عن ذلك بعد أن أقنعهم أن

---

(60) ابن الأثير، م. ن. ص: 547 ـ 548، وأبو شامة، م. ن. ص 92 ـ 93. ورنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 750 و Grousset, Op. Cit., V. 2, p. 810. وجعبر: قلعة كانت على الفرات بين بالس والرقة، قرب صفين، وكانت تسمى قديماً (دومر)، ثم ملكها جعبر بن مالك فسميت (جعبر)، (معجم البلدان).

(61) Grousset, Op. Cit., V. 2. p. 810.

(62) Ibid.

(63) Ibid., pp. 810-811.